بدد السكون صراخي
فأقفلت في الليالي النوافذ ،
وعلا فوق جلبة المنادين
فتسللت بين العربات .
الاحقك ابدا بدعائي ،
اكرره بدون رتابة :
وماذا علي ان خرقت طبلتيك
ولم تبق ما لم تخرقه فيّ ؟

(القصيدة ك ، رقم ١١)

هذه في الواقع هي خلاصة كتاب « القصيدة ك ». في احدى عشرة قصيدة من قصائده الخمس والعشرين ، نجد الشاعر يخاطب المسيح . أما الحبيبة ، والمفروض انها هي محور الكتاب ، فلا يخاطبها مباشرة الا بقصائد ثلاث . وهناك ثلاث اخرى يتحدث فيها عنها وهي أمور تتعلق بها ، كما ان هناك ثلاث قصائد يتحدث فيها ، على نحو مباشر ، عن الوطن والنفي والتشريد . غير ان المواضيع هذه كلها ، في باطن القصائد جميعا ، متداخلة متواشجة ، يلخصها في النهاية بتلك القصيدة المدهشة « من الاعماق صرخت اليك يا موت » ، التي هي ذروة هائلة للكتاب كله ، بل « ذروة شامخة في شعرنا المعاصر باجمعه » كما تقول سلمى الخضراء الجيوسي .

ليس المجال هنا للمقارنة بين تشبه توفيق الشاعر بالمسيح ، وبين تشبه بعض زملائه الشعراء ، وبخاصة بدر شاكر السياب ، بالمسيح ايضا. ولكن لا بد من القول هنا ان ما رآه السياب من « مسيحية » الشاعر بالتضحية والفداء ، جاعلا من الشاعر مصلوبا آخر من اجل خلاص البشرية واخصاب الارض ، ليس هو بالضبط ما نراه في توفيق . فالمسيح لم يكن لتوفيق مجرد رمز تموزي للخلاص . كان المسيح له الها فاديا على الانسان ان يتبعه ، ويعشقه هو وحده ، ويتوحد به ، فيجد الخلاص . المسيح له هو القوة التي على الانسان ان يجعلها قوته لكي تجد البشرية خلاصها . (يقول في احدى رسائله الي (٢٢ / ١٩٦٠/١١) : « ان من يحمل الصليب ولكن يحب ابا او اخا او زوجة اكثر من المسيح فانه لا يحب المسيح . ولا مجال للمساومة . »)

توفيق ، هنا ، بالطبع ، مؤمن بالمعنى المسيحي المحض ، وايمانه هو الذي يبرحه ويضنيه ويشعره بالمرارة عندما يجد انه لا يهيىء له الخلاص . فيعارك الهه باستمرار ، بل ويحاسبه ، كما في القصيدة الثالثة من « القصيدة ك » ، حسابا دقيقا مذهلا ، حيث يقول :

وفتحنا افواهنا
واكتوت السنتنا باللهيب ،
وتبعناك حتى في غيابك
واغتربنا حيث شئت
وتناثرت اجسامنا اشتاتا ،
وانصلبنا مشقلبين .
لأجلك .

ونجده في القصيدة العشرين يجاهر بعزمه على القطيعة النهائية بينه وبين المسيح ، وان يقذف به الى حيث يتلاطم الموج وتنفجر الرعود ، وفي نهاية القصيدة ، وقد تصاعد غضبه تصاعد الفجيعة والقنوط (وهل آلم من غضب المحب على الحبيب !) يقول ، واصفا موقفه يوم الدينونة امام العرش :

وتجتاحك والعرش
قهقهة متواصلة هادرة
ملأى بفصم العرى
الازدراء فيها والعويل اضطربا ،
عبثا يخفتها سوق صحبك لنا لبعيد
عبثا يطغى عليها
تلاطم موجك ، انفجار الرعود
عبثا يصمك عنها
صخر ضمير
وتهليل المخنثين لدنك الهزالى .

تهليل المخنثين ! انه يرفض ان يكون خصيا من اجل من يحب. وستكون قهقهته الاخيرة داوية هادرة... انها منتهى يأس المؤمن من رحمة ربه ، الذي يشبه النزوع الى الانتحار . غير ان توفيق كان يعلم ان هذا الغضب سيدفعه في النهاية رجوعا الى الحياة، على ذلك النحو الذي بلغ به حافة الموت ثم قذف به عودة الى الايمان ، ربما لكي يتجدد لديه العذاب . فهو حتى هنا لم يستنفد عذاب العاشق المنفي ، مما سنراه بعد ذلك في « المعلقة » . ولعل بعض السر في هذا المنحى هو ذلك الدمج الخفي ، الذي يبرز على حين غرة هنا وهناك ، بين التجربة الدينية العنيفة والتجربة الجنسية العنيفة . فتوفيق صايغ كثيرا ما يستعمل الكنايات الجنسية للدلالة على العلاقة الايمانية ، كما فعل من قبل عديد من المتصوفين ، وكما فعل شاعر أحبه توفيق حبا خاصا : جون دن ، الشاعر الانكليزي الميتافيزيقي الذي عاش في القرن السابع عشر . فهذا الشاعر ، عندما انقلب من عاشق عنيف